

أثر العدول في توجيه المعنى في شرح ابن هشام "بانت سعاد"

غياث بابو*

الملخص

تتناول هذه الدراسة قراءة نصية نحوية جديدة للردة، تتمثل في ظاهرة العدول أو الانزياح التي وظفها الشاعر كعب في إبداعه الصلبد، فأبرزت غنىً فنيًا، ودلاليًا، من خلال لغته الشعرية التي تحمل طاقات إيجائية، وإمكانات تعبيرية، تمثلت في أنماط متعددة من العدول: النحوي والصري؛ ذلك العدول الذي كشف عن بواطنها، وفتق أسرارها ابن هشام الأنصاري في شرحه قصيدة "بانت سعاد"، فدلّت الدراسة على قدرة ابن هشام العقلية على استنباط الوجوه النحوية المتعددة، من مثل: النقل، والقلب، والتناوب، وغيرها، وربطها بالمعنى؛ إذ يرجع تعدد المعنى إلى القراءات المتنوعة للبيت الشعري، فحاولت في دراستي هذه إعادة إنتاج المعنى اعتماداً على ربط النحو بالدلالة.

وهذا العدول عن الصيغ الأصلية في السياق النصي له أبعاد بلاغية، ومقاصد بيانية، يعتمد إليه الناظم، فيكشف عن وجه من وجوه البيان الدلالي الذي يفاجئ المتلقي، ويشير دهشته، لمخالفته القواعد المألوفة في العرف اللغوي؛ مما يؤدي إلى كسر النظام النحوي، والانحراف باللغة من مسار الجمود إلى التطور حيث الإبداع، والتوجه نحو البؤر ذات الدلالات المركزة التي تسهم في تقوية المعنى بسبب التوسع الدلالي في الصيغ والبنى التي تشتمل عليها التصوص المدروسة.

كلمات مفتاحية: القاعدة، المعنى، التوجيه.

مقدمة:

إنّ الدراسات النحوية واللغوية ركزت على استنباط القواعد التي تتعلق بأقسام الكلام، وما يتعلّق بالجملة من مباحث، ومن ثمّ تطبيقها على الكلام الفصيح من قرآن وشعر ونثر؛ في حين تجاوز علماء المعاني هذه الشكليات، وهذه القواعد المثالية إلى فهمٍ أعمقٍ وأدقّ للمعنى، فحاولوا الغوص في أغوار المعنى،

* - مدرّس في قسم اللغة العربية، جامعة الفرات، الحسكة، سورية.

كاشفين أسرارها، فانثقت عنهم مصطلحات عدّة مثل: الالتفات والعدول والحذف والتعريف والتنكير وغيرها، وقد أصبح العدول في حلتها الجديدة، عند المحدثين، انزياحاً، وهو من ترادف المصطلحات، لاختلافها، ولا يُلجأ إليه إلا في لغة الإبداع، فإذا خرج شيء عن القواعد المعيارية، عُذَّ خروجاً عن المؤلف، فأصبح انزياحاً وعدولاً، بيد أنه في حلتها الجديدة يصبح نُضاراً^(١).

ومع مرور الزمن ولدت من رحم هذين المصطلحين - أعني العدول والانزياح - مصطلحات متعدّدة تؤدّي الدلالة عينها، فالأكثر استعمالاً من بين تلك المصطلحات: العدول والانحراف والانزياح، وقد تعلقت بدائرة هذه المصطلحات مصطلحات غريبة المنشأ منها: التجاوز، المخالفة، الانتهاك، خرق السنن، اللحن، التحريف، وغيرها^(٢).

يسهم هذا العدول في توليد فضاءات دلالية، وأبعاد جمالية، من حيث الوزن والموسيقى، وربط العناصر الفاعلة في السياق، وجعله نسيجاً متناغماً، يكمن في نظام العلاقات بين البنى العميقة والبنى السطحية، وهذا التناوب يعطي تفسيراً دلالياً، ويفتح الباب أمام التأويل بوصفه وسيلة من وسائل تفسير التحوّل عن الأصل إلى الفرع، فالعدول "أن تريد لفظاً، فتعدل عن اللفظ الذي تريد إلى آخر، سواء أكان في الحركات أم في الأصوات أم في الصيغ أم في التراكيب"^(٣).

وقد سمّى ابن جني هذه الظاهرة "شجاعة العربية" لما فيها من الحذف والزيادة والتقدم والتأخير والحمل على المعنى، والتحريف وغيرها، مستندلاً على ذلك بأمثلة كثيرة مدللاً على ما بها من مجاز واتساع، كما أفرد باباً في إنابة الحركة عن الحرف والحرف عن الحركة، فتعدل عن الحركة في آخر الكلمة إلى ما قبلها^(٤). وقد كثر في الدراسات الأسلوبية المعاصرة الجمع بين مصطلحي: العدول والانزياح، غير أنّ الأول قديم، والثاني غربي معاصر، فهو بالفرنسية *ecart*، وبالإنجليزية *deiviation*، والانزياح يعني استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصوراً استعمالاً يخرج بها عمّا هو معتادٌ ومؤلف، بحيث يؤدي ما ينبغي له أن يتصف به من تفرّد وإبداع وقوّة جذبٍ وأسْرٍ^(٥) ورُبّما كان مصطلح العدول من أقوى المصطلحات القديمة تعبيراً عن مفهوم الانزياح^(٦).

١ أحمد محمد ويس، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، ص ٧.

٢ المصدر نفسه، ص ٣٣، ٣١.

٣ محمد إبراهيم عبد السلام، ظاهرة العدول في اللغة العربية، ص ١٨.

٤ ابن جني، الخصائص، ٢ / ٣٦٠، ٤٤٦، ٤٤٧.

٥ أحمد محمد ويس، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، ص ٥.

ورأى الدكتور مصطفى النحاس أنّ العدول أو الانزياح لا يكون إلا على مستوى النص، فيتفاعل النحو مع الدلالة لإنتاج المعنى فهو "دراسة الوظيفة الدلالية لبعض العناصر النحوية وربطها بشبكة الدلالة في النص، وذلك يتطلب إخضاع التحليل النحوي لعمليات التحليل البيوي في الأدب، بمعنى أن ما يقع في النص من انحرافات، عدول عن الأصل أحياناً، أو انزياحات على المستوى الأدبي يقع أيضاً على المستوى النحوي، وهذا لا يتم جزافاً وإنما تحكمه قواعد عامة وأطر نظرية يكشف عنها النص" (١).

يكتسب هذا البحث أهميته من خلال القضايا اللغوية التي تم تناولها من قبل ابن هشام في شرح "بانث سعاد"، ودراستها دراسة نحوية نصية على مستوى التركيب، لما لهذه الظاهرة - أعني الانزياح أو العدول - من أهمية كبيرة في الحياة النقدية المعاصرة، فتأتي التحولات على الصعيد النحوي متمثلة في قضايا الانزياح الذي يشتمل على معانٍ متعددة، مما يعكس طاقة متفجرة في بنية التركيب النحوي، وهو كلام يدلّ في آن على التفرّد والتجيز، وخلق خلخلة في بنية التوقع الجمالي النحوي.

أما هدف البحث، فيكون من خلال تسليط الضوء على ربط القارئ بالقضايا الإبداعية المتعلقة بلغة الشعر، وما تشتمل عليه من رؤى نحوية ودلالية تتعلق بالتأويل والملاءمة بين اللفظ والمعنى، مما يقودنا وإزاء هذه الحالة إلى أماكن لم تكن مألوفة في الاستخدام اللغوي، وقد أصبح بالإمكان تدارسها والانطلاق منها إلى آفاق أخرى في الدرس والنحوي.

وفيما يخص منهجية البحث، فقد اتخذت منهج الوصف الذي يلاحق البنية التكوينية لقصيدة البردة الأولى في فضاءاتها النصية بغية تبيان أثر الانزياح في المعنى، والكشف عن جمالية التركيب الشعري، ودلالته المثقفة، وقد كانت الانطلاقة من استنطاقات ابن هشام لقصيدة كعب المشهورة.

وإذا ما عدنا إلى قصيدة كعب وجدنا اهتمام ابن هشام بالانحرافات والانزياحات المشكّلة للنص الشعري، وقد كان في تبعه دقيقاً، للكشف عنها في النصّ الفصيح، وقد اتخذ الانزياح في فكر ابن هشام مصطلحات متعددة، منها:

أ - النقل أو التحويل:

١ - صيغة "أفعل به"، والقول بالزيادة لمواءمة القاعدة:

أوضح ابن هشام أنّ الباء تزداد في صيغة "أفعل به" في قول كعب:

أَكْرِمَ بِهَا خُلَّةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولٌ (٢)

١ مصطفى النحاس، نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، ص ٤.

فقاله: أكرم بما: ما أكرمها، ومثله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾^(١) أي: ما أسمعهم، وما أبصرهم في ذلك اليوم.^(٢) ثم راح يعرض آراء النحاة في صيغة " أفعل به.

إن كثيراً من حروف المعاني جاءت متفقة مع قواعد النحاة، وبعضها الآخر خرج على القياس، فلجأ النحاة إلى تبرير ذلك بالتأويل، لتستقيم آراؤهم، وتتفق مع مذاهبهم، ومن ذلك زيادة الباء في صيغة " أفعل به"، وما ينتج عنها من معانٍ ودلالات، يقول الرضي: " وإنما سميت هذه الحروف زوائد، لأنها قد تقع زائدة، فيتوصل بها إلى زيادة الفصاحة، أو إلى إقامة وزن أو سجع أو غير ذلك، وسميت زائدة لفائدتين: معنوية، لتأكيد المعنى الثابت وتقويته، ولفظية لتزيين اللفظ، وكون زيادتها أفصح، أو كون الكلمة أو الكلام، بسببها، تهيئاً لاستقامة وزن الشعر أو لحسن السجع".^(٣)

فالتركيب (أكرم بما!) معدول ومحوّل عن بني عميقة، تألفت على مراحل لتفرز البنية السطحية في نظم الشاعر، فالمرحلة تبدأ من صيغة: كُرمت سعاد، ودلالة (فَعَلَ) تدل على أنّ صفة الكرم ملازمة لـ "سعاد" حتى أصبحت كالسجّية والطبع فيها، وهذه دلالة التحوّل في الصفات حيث تصف تطور الحال درجة، فدرجة؛ لأنّ الحدث معها يدل على الاستمرار والثبات، والكرم، حينئذٍ، ملازم لسعاد، ويمكن منها؛ " فتحوّل الصيغة إلى " فَعَلَ" مضموم العين للدلالة على غرض المبالغة والتعجب؛ لأنّ الأصل في صيغة (فَعَلَ) داخل تموقعها السياقيّ النصيّ للقصيد أن تدل على الطبايع والسجاي، فإذا انتقلت إلى التعجب دلّ ذلك على أن المتعجب صار كالغريزة، لأن باب (فَعَلَ) موضوع لهذا المعنى على نحو نسبيّ تجرّديّ طاغ.^(٤)

ولمّا فاجأ الشاعر المتلقّي بازواج تركيبية لعبارتين متماثلتين في المعنى ربطت بينهما "أو" التي بمعنى الواو: "لو أنّها صدقت موعودها، أو لو أنّ التصح مقبول" - إذ إنّ هذين التركيبين اعتمدا على مفتاح دلالي رئيس ربط بين التركيبين المتوازيين هو الامتناع، سواء في اللفظ من خلال أداة الشرط " لو" التي تنفيذ الربط بين جملي الشرط والجواب، أم في المعنى لما لعدم الصدق وعدم قبول النصيحة من معنى عدم الامتناع للأمر، فولّد جملاً متوازية ومتضافرة دلاليّاً وإيقاعيّاً - غير مسار المعنى، إلى تركيب آخر سلب منه صفة لزوم الكرم لسعاد، أي: لو صدقت لتّمّت خلالها، ولكانت كريمة، وزاد المعنى وضوحاً في البيت

^١ سورة مريم، الآية، ٣٨.

^٢ ابن هشام، شرح قصيدة كعب بن زهير، ص ١١٠-١١١.

^٣ الرضي، شرح الرضي على الكافية، ٤/ ٤٣٢ - ٤٣٣.

الذي يليه: " لكنّها خُلَّةٌ قد سيط من دمها فَجَعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلٌ " أي: " إنّ هذه المرأة قد خلط بدمها الإفجاع بالمكروه، والكذب في الخبر، والإخلاف في الوعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سحياً لها لا طمع في زواله عنها. فأصبح التركيب: أكرم سعاداً، على الأمر، وإسناد صيغة الأمر إلى الفاعل الظاهر قبيح، وهذا مخالف للقاعدة الأصل، فحوّل إلى تركيب ثالث: أكرم سعاداً! فزيدت الباء في الفاعل لإصلاح اللفظ. (١) وأصبح تركيب التعجب مؤقّتاً حالياً، وليس مستمراً، فأنت تتعجب في الوقت نفسه الذي ترى شيئاً خارجاً عن المؤلف، أو عن العادة، ثمّ يمّحي هذا التعجب بعد مدّة.

فالعدول هنا هو الذي كسا التركيب اللغويّ وشياً لفظياً إضافياً، بإعادة تنظيم البناء اللغوي لخلق جمالية تخترق ذهن المتلقّي، وتؤثّر فيه. فالدلالة لفظية بزيادة حرف الجر للتوكيد، والتثبيت، تثبيت ما يريد الشاعر بثّه للتأثير في ذهن المتلقّي، من إعجاب بهذه الصديقة، أي: ما أكرمها خُلَّةٌ لو أنّها وفّت بمواعيدها، أو قبلت النصح، ولا تخلو الزيادة من تزيين اللفظ، لأجل استقامة الوزن، ونجد أنّ عبارة " أكرم بها! " الإنشائية تعطي طاقة دلالية، تكسو السطح اللفظي بهاءً وجمالاً، وقدرة على التعبير، وإيصال المعنى المراد، بانزياحها عن العبارة العميقة "كُرمت" الخبرية فجملة "التعجب جملة توليدية للتعبير عن الانفعال، ارتبطت بتركيبها وخصائصها في ذهن المتكلم بمشاعر الإعجاب والدهشة والحيرة، فصيغة "أفعل به" ارتبطت بالتعجّم الصوتية المستوية في بداية الجملة، ثمّ تأخذ هذه التعجّم وضع التعجّم الهابطة في نهاية الجملة" (٢).

٢- العدول عن المثني إلى المفرد:

لقد ركن ابن هشام في غير موضع إلى حمل الكلام على المعنى حين وجده على خلاف قواعد العربية، وأصول النحويين، كردّ المثني إلى المفرد وما شابه ذلك، وكان يخرج على ما يوافق القواعد النحوية الموضوعية؛ وذلك في قول كعب:

مِنْ كُلِّ نَضَّاحَةِ الدَّفْرَى (٣) إِذَا عَرِقَتْ عُرْضُهَا طَامَسُ الأَعْلَامِ مَجْهُولُ

فقوله: "الدّفري" مفرد قائم مقام الثنية، إذ الناقاة لها ذفريان لا ذفري واحدة. (٤)

١ الرضي، شرح الرضي على الكافية، ٢٣٤/٤-٢٣٥. ابن هشام، شرح قطر الندى وبل الصدى، ٣٢٠.

٢ مرعي الخليل عبد القادر، أساليب الجملة الإفصاحية في النحو العربي، دراسة تطبيقية في ديوان الشابي، ص ٨٣.

٣ قال الليث: الدّفري: هو الموضع الذي يعرق من البعير خلف الأذن، وهما ذفريان من كل شيء. ابن منظور، لسان

العرب، (ذفر)

إذ المعنى: نضّاحة الدفرتين، وهو مجاز مرسل، ومن العرب من يوقع كلاً من المفرد والمثنى والجمع موقع كل من الآخرين؛ أما وقوع المفرد موقع المثنى، ففي العضوين كالعينين والأذنين واليدين والرجلين، تقول: رأيته بعيني وسمعته بأذني، ومنه قول كعب: من كلّ نضّاحة الدفري؛ إذ لكل من الناقة والبعير ذفريان، وهي نقرة خلف أذنهما،

غير أنّ هذا الاستعمال اللغوي، أعني إقامة المفرد مقام المثنى، كان لغرض أسلوبيّ، يمثّل حيويّة العربيّة ومرونتها؛ فحق الكلام والقاعدة استعمال الأصل على التثنية، من غير انحراف، بيد أنّه قد يعبر عن أوضاع دلالية لا يمكن الوصول إليها إلاّ بمثل هذا الانزياح النحويّ عن الأصل القواعديّ المعياريّ. وربما كان التخفيف، وفهم المعنى المراد ألبأ الشاعر إلى هكذا انزياح؛ لأنّ ذكر الكلمة مثناة - والتثنية فائدتها التكرار - أثقل من ذكرها مفردة، فالمفرد أخفّ على النطق من المثنى، وفهم المعنى المراد من كلمة "الدفري" جعل الشاعر يستعمل هذه الكلمة مفردة.

٣- العدول عن "مفعول" إلى "فعليل":

إنّ العدول في الصيغة الصرفية يساهم في تنمية الثروة اللغوية؛ لفظاً ودلالةً، فهناك تغيرات لأجل الوزن والموسيقى، فيحدث الشاعر خرقاً في نظام اللغة الصرفي، يؤدّي إلى ترك المستعمل الأصل، واستحداث فرع يساعد على توليد قاعدة جديدة تؤدّي معنىً دلاليّاً، وجمالياً إضافياً، يتمثّل في تقوية المعنى. وعليه قول كعب:

وما سعادُ غداةَ البينِ إذ رحلوا إلاّ أغنُّ غضيضُ الطّرفِ مكحولُ

قوله: "غضيضُ الطّرف" هو "فعليل" بمعنى "مفعول" كقتيل وجريح وذبيح وكحيل ودهين، وهو كثير. (١) نجد في هذا البيت أنّ الشاعر عدل عن استعمال "مغضوض" إلى "غضيض" وفق تحوّل إيقاعيّ في الصيغة بغية خلق حيويّة تطرب لها الآذان، حفاظاً على موسيقى البيت، ونغمته. وبهدف التنوع في الأوزان والصيغ، كي لا يقع تكرار في صيغة "مفعول"، فيملّ القارئ، وينصرف عنه، ولفظ "غضيض" أفصح وأخفّ من صيغة "مغضوض" وربما يكون توالد الصيغ الصرفيّة من بعضها اتّساعاً في اللغة، بيد أنّ تعاور الصيغ، له دور مهمّ في التكتيف الدلالي حيث يعتمد فكر الشاعر الحرّ إلى اختيار ما يراه مناسباً من الصيغ اللغوية التي تقوم بدور جماليّ تكميني عنه، إلى جانب وظيفتها الدلالية التي ترمي إلى الثبات والمبالغة في الوصف.

ف "فعل" التي يراد بها معنى "مفعول" تشتق من الفعل المتعدي، وتستعمل في صيغة الفعل المبني للمجهول، للدلالة على الحدث الواقع على المفعول، مع إرادة التجدد، وهذه الصيغة فيها تحوّل، يبدأ بالتركيب العميق: "غَضُّ الطَّرْفِ" مع إرادة التجدد والاستمرار، فإذا أراد أن يكون الغضُّ وصفاً ثابتاً للظني حوّل التركيب إلى: "ظني أغنُّ غضيضُ الطرف"، للدلالة على المبالغة، وهو المعنى المقصود؛ أي: لكثرة وقوع الغضِّ منه.

فلجوء الشاعر إلى هذا المستوى الإبداعي يجعله مخترقاً المستوى المألوف للغة، إذ يشحن النَّصَّ الشعريَّ بطاقات أسلوبية جمالية لإحداث صدمة في ذهن المتلقي. فدلالة "فعل" هذه على "أن الوصف قد وقع على صاحبه، حيث أصبح سجيّة أو كالسجيّة ثابتاً، أو كالثابت، فتقول: طرف مكحول، وطرف كحيل، فكحيل أبلغ من مكحول، لأنّ معناه أنّ الكحل أصبح في صاحبه كأنه حلقة" (١). وكذا الحال بالنسبة إلى صيغة (غضيض)؛ فأَيُّ سعاد هذه؟ وأيُّ غزال هذه؟ إنَّها تمثّل اكتمال الحُسن مع اكتمال الغضِّ للطرف المكحول ذلك الغضُّ الذي صار مُعلماً ومثالاً وفاعلاً، وممتدّاً، كيف لا؟ والحديث هنا عن سعاد الرّمز المسافر إلى تخوم لا حدود لها من التأمل العارف عند كعب الشاعر.

ب - القلب:

١- قلب التشبيه لمواءمة تعليق شبه الجملة:

التعليق مسألة تعتمد على المعنى، إذ لا بدّ لشبه الجملة من متعلّق، تتعلّق به، وممّا يُسجّل لابن هشام حذوه مسلك البلاغيين في الاعتماد على المعنى البليغ في تعليق الظرف "غداة" في قول كعب:

وما سعادُ غداةَ البين إذ رَحَلُوا إلاّ أغنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ

أنّه قال: "عاملها التشبيه، ويقدر حرف التشبيه قبل "سعاد" وقبل الظرف أيضاً داخلاً على "سعاد"، أي: وما كسعاد في هذا الوقت إلاّ ظنيّ أغنُّ، وهو محصّل للمراد على وجه أبلغ، وذلك إذا بالغوا في التشبيه عكسوه، وفي ذلك من المبالغة ما لا يخفاء به. وقلب الكلام جازئ في التشبيه وغيره، ويكون مقبولاً عند المحقّقين إذا تضمّن اعتباراً لطيفاً كما في باب التشبيه." (٢)

وإذا كان هذا النوع من التشبيه خروجاً على المألوف، والقاعدة الأصل، فهو عدول وانزياح، انزياح عن الأصل إلى الفرع، للمبالغة، وقد اتخذ هذا التشبيه مسميات عديدة، من مثل التشبيه المعكوس أو المنعكس، أو غلبة الفروع على الأصول.

١ فاضل صالح السامرائي، معاني الأبنية في العربية، ص ١١٧.

فهذا على أنه جعل صوت سعاد لما فيه من عُنَّة، ورَقَّة كأنه أشهر وأعرف وأكمل وأجمل حين مُتَمَدِّح، من صوت الظِّي الأَعْرَن، فيلزم تضمَّنه معنى خاصّاً لطيفاً، ويبدو أنّ الغرض الأساس من هذا التَّشبيهِ المبالغة، فصار المشبَّه به "الظي" فرعاً، والمشبَّه "سعاد" أصلاً، وعكس التَّشبيهِ، غير أنه حذف أداة التَّشبيهِ. وبقاء أداة التَّشبيهِ في التَّشبيهِ المقلوب أقوى من حذفها.. لأنه بحذفه لأداة التَّشبيهِ ساوى بين عُنَّة صوت الظِّي وعُنَّة صوت سعاد، فليس لأحد فضل في صفاء الصوت، وغنَّته، لأنَّهما متساويان، ونجد هنا أنّ التَّشبيهِ المقلوب اتَّحد مع التَّشبيهِ البليغ، فزاد المسألة تعقيداً، وربَّما وصلت إلى درجة الافتعال والمبالغة.

وذهب ابن هشام في معني اللبيب إلى أنّ بعض النحاة علّق الظرف "غداة" بالأداة "ما" لأنَّها نابت مناب الفعل "انتفى" والتقدير: انتفى كونها في هذا الوقت إلّا كأعْرَن، ومنعه بعضهم^(١) ولا يجوز تعليق الظرف بحال محذوفة من "ما" لأنَّه "لا يعمل في الحال معنى حروف النفي والاستفهام، لأنَّها لا تشبه الفعل لفظاً"^(٢). وعليه؛ فإنَّ التعليق بالفعل "يشبه" على التَّشبيهِ المعكوس أقوى وأبلغ من التعليق بـ "ما" لنيابتها عن "انتفى"، لما فيه من جمالية لاتتوافر عندما يعلّق بـ "ما".

٢- قلب الإسناد:

القلب هو " أن يشمل الإسناد إلى شيء، والمراد غيره"^(٣). وجعله قدامة بن جعفر من عيوب اثتلاف المعنى والوزن، وعرّفه بقوله: " وهو أن يضطر الوزن الشعريّ إلى إحالة المعنى، فيقلبه الشاعر إلى خلاف ما قصد به."^(٤) ورأى ابن هشام أنه فنٌّ أكثر ما يقع في الشعر،^(٥) وفي القلب خلاف بين النحويين والبيانين. وذهب سيويوه إلى أنّ وقوع القلب في اللغة لسعة الكلام: "وأما قوله: أدخِل فُوهُ الحجر، فهذا جرى على سعة الكلام، والجيد: أدخِل فاه الحجر، كما قال: أدخِلت في رأسي القلنسوة، والجيد: أدخِلت في القلنسوة رأسي"^(٦).

وقد أقرَّ ابن هشام بوقوع القلب في الشَّعر عند وقوفه على قول كعب:

كَأَنَّ أَوْبَ ذِرَاعِيهَا إِذَا عَرِقَتْ وَقَدْ تَلَفَّعَ بِالْقُورِ الْعَسَاقِيلُ

١ ابن هشام، معني اللبيب، ص ٥٧٢.

٢ الرضي، شرح الرضي، ١٥ / ٢.

٣ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ٣ / ١٨٤.

٤ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ٢٠٩.

٥ ابن هشام، معني اللبيب، ص ٩١١.

إذ قال في العجز: " وفيه قلب، إذ المعنى: أنّ السراب صار للأكم مثل اللثام، فالأصل: وقد تَلَفَعَتِ القورُ بالعساقيل، فقلب. " (١)، أي: تلخفتُ الجبال الصغيرة أو التلال بالسراب. وليس العكس. فظاھرهُ أنّ الشاعر أسند الفعل " تَلَفَع " المراد منه الاتخاذ إلى العساقيل، والمراد عكس ذلك، إسناده إلى " القور " والباء للحال، والقور مصاحبة العساقيل، لا العكس، وفائدته المبالغة، يجعل العساقيل مستتبعة للقور ومتلخفة بها.

ويكشف لنا السياق النصي للتركيب عن نوعين من النحو: النحو المعياري المتمثل بالقاعدة الأصل، إسناد " تَلَفَع " إلى " القور"، والنحو الخارج على معيار النَّصِّ المتمثل بلغة الإبداع، والمتمثل بلغة انفتاح النَّصِّ وتعدد القراءات المتجلی بالقلب، وإسناد " تَلَفَع " إلى العساقيل. فالتأثر المتلهبة على المستوى النفسي الجوّاني انعكست على الأشياء الخارجية فجعلتها أشدَّ قساوة على المستوى الظاهري، بيد أنّ ناقة كعب تتطلع إلى تخوم تجذرت بفضاءات الروح، روح المحبة والأمل، والتواصل، والإشراق، والإيمان، إنّ هذه الناقة فيها ملامح مقدّسة من هنا لم تعدّ المقيّدات الدنيوية عراقيل يحسب لها حساب، إنّها ناقة مكتملة رسمتها أجدية الطموح الثّواب الذي يتطلع إلى التور حيث موطن الحسّ والحبّ والدّفء والعفو التّبيل. وعلى أية حال، فالقلب اللّغويّ ذو السمات الشعريّة، خارج عن المألوف، يثر ذهن المتلقّي، ويشغله، فيجعله يبحث عن المعنى خارج إطار الكلاسيكية المعهودة، ليغوص في أُرز التراكيب، فينتزع غلقها.

ج - أثر تغيير العلامة الإعرابية في المعنى:

أدرك النحاة أهمية تغيير العلامة الإعرابية، ودورها في توجيه المعنى، وجعلوا لذلك قواعد مختلفة، ولاحظوا الفروق بين المعاني من خلال العدول عن هذه العلامة، فتأخذ تركيباً جديداً، ومعنى مغايراً للمعنى السابق، قال ابن فارس " فإنّ الإعراب هو الفارق بين المعاني..... وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام. " (٢)، ويوقف على أغراض المتكلمين، وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني.

١ ابن هشام، شرح قصيدة كعب بن زهير، ٢٢٢ - ٢٢٣. مغني اللبيب، ص ٩١٢، القور: جمع " قارة "، وهي الجبل الصغير، و"العساقيل" اسم لأوائل السراب، ولا واحد له، و" التلّفَع " الاشتمال. وقال الزمخشري: تلّفَع الشجر والأرض بالخضرة؛ وتلّفَعَت القارة بالسراب. الزمخشري، أساس البلاغة، " لفع ".

ومن سمات النقد التّحويّ عند ابن هشام اجتهاده في ذكر أكثر من رواية للكلمة مع بيان الأوجه الإعرابيّة المحتملة، بغية تأييد مذهبه التّحويّ وتدعيمه، ومنه: العدول عن التّصّب إلى الرّفع على اسم "إنّ" قبل مجيء الخبر، قال كعب:

فلا يغرّئك ما منّت وما وعدت إنّ الأمانيّ والأحلام تضيّل

ف: "والأحلام": عطف على اسم "إنّ"، ويجوز رفعه، فقال الكوفيون^(١): معطوف على محلّ الاسم، وقال البصريون: هو إمّا مبتدأ محذوف خبره، والجملة معترضة بين اسم: إنّ، وخبرها، وإمّا مبتدأ خبره ما بعده،، ومحذوف خبر: إنّ، لدلالة خبر المبتدأ عليه.^(٢)

فعلى رأي الكوفيّين "رواية الرّفع" التّركيب واحدٌ، وجواز العطف على المحلّ بكونه مرفوعاً قبل دخول "إنّ" وبعدها؛ أي: الأمانيّ والأحلام تضيّل، لم يجز هنا إلاّ الرّفع، عطفاً على اللفظ بوساطة العلامة الإعرابيّة، والمعنى بوساطة أداة الرّبط "الواو" والجمع بين الأمانيّ والأحلام، وجوّز مجيء الخبر مصدرراً، لأنّ المبتدأ ومعطوفه اسما معنى، تقول: التفوّق والتّجاح تكرّمٌ، ولا يجوز أن يكون المبتدأ اسم ذات، كقولنا: زيدٌ وعليّ تفوّقٌ. إمّا الاجتهادُ والمثابرةُ تفوّقٌ.

ولما أراد الشاعر إقرار ذلك وتثبيتته أكّده بـ "إنّ" فعُدل بالعلامة الإعرابيّة عن الرّفع إلى التّصّب، فعاد تركيب العطف متّحداً لفظاً بوساطة العلامة الإعرابيّة، ومعنى بوساطة الجمع بين المترادفين: "الأمانيّ والأحلام" والإقرار والتّوكيد بأنّ ما تعدّ سعاد من "الأمانيّ والأحلام" تضيّل وخداع، فلمّا أراد الشاعر تفضيل شيء على آخر لتثبيتته في ذهن المتلقّي أبقى التوكيد والإقرار والتّثبيت للأمانيّ، "إنّ الأمانيّ"، لأنّ الأُمْنِيَّة؛ بُعِيَّة ومطلب، ورغبةً مرجوةً، وما يتمنّاه الإنسان ويشتهيّه، وقد تتحقّق، وأمّا العدول عن النصب في "الأحلام" إلى الرّفع، ليصرف نظر المتلقّي عنها، فالحلم هو رؤية في النوم، وبُعِيد عَنِ الْوَأَقِعِ، فلا يتحقّق، وقد خالف قاعدة العطف في اللفظ، لوجود تنافر بين الفتحة والضمة، فعطف كعب في قوله: إنّ الأمانيّ والأحلام تضيّل " بين اسمين متناسبين في المعنى، والواو تقتضي المشاركة في الإعراب والمعنى، فالخبر لهما معاً، و" تضيّل " مصدر يقع للواحد وللجمع، وقول بعض النحاة "تضيّل" خبر لأحدهما دون الآخر وخبر الثاني محذوف، جائز أيضاً على أن يكون "تضيّل" لفظاً أريد به الاسم لا المصدر؛ أي: مُضِلَّة، أو أن يكون الاسم " تضيّل " المتأخّر خبراً على الأرجح للمتقدّم، وحذف خبر الآخر لدلالته عليه، فنقول: إنّ الأمانيّ تضيّل والأحلام كذلك، والواو على هذا التقدير تقتضي المشاركة في الإعراب

١ الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف، ١/١٨٥.

والمعنى، والمشاركة في المعنى واجبة للجمع، ليكون المذكور دليلاً على المحذوف. وهكذا نجد ابن هشام يربط بين النَّصِّ الشَّعْرِيِّ، والأوجه المحتملة للتركيب، من خلال استحضار قواعد فرعية تتفق مع مذهبه الذي يقف عنده، بهدف تخريج الرواية على وجه صحيح تقبله قواعد العربية.

د - العدول عن الإنشاء إلى الخبر:

وقد يُعدّل عن الإنشاء إلى الخبر لأغراض تزيد التركيب بلاغةً وفصاحةً، ومما وقف عنده ابن هشام قول كعب:

مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الدُّرِّ قِرْآنٍ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلٌ

"هذا البيت وما بعده تتميم للاستعطف، والاستعطف فيه من جهات:

أحدها: ما اشتمل عليه من طلب الرفق به والأناة في أمره، بقوله: مهلاً. وأصله: إمهالاً، وهو مصدر أنيب عن فعله، وحذف زائد الهمزة والألف.

والثاني: الدعاء له في قوله: "هداك الله" فإنه خبر لفظاً ودعاءً معنيّ، ومثله: غفر الله لك، وصلى الله على محمد، وهو أبلغ من صيغة الطلب." (١)

فقد استعمل كعب الفعل الماضي "هداك" المقصود به الرسول (ص) للاحتراز عن استعمال فعل الأمر "ليهدك" تأدباً، وهذا المقال يكون في مخاطبة ذوي الشأن، حفاظاً على العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب؛ لأن المتكلم هو أقلّ شأناً من المخاطب، فيعدل المتكلم في خطابه عن صيغة الأمر إلى صيغة الخبر تأدباً "ولاسيّما أن الرسول قد أهدر دمه، فأراد أن يحافظ على تلك العلاقة التراتبية بينه وبين الرسول (ص)، فالمفردات "هداك، أعطى، نافلة القرآن، مواعيط، تفصيل" مفردات تنتمي إلى فضاء دلالي نصي واحد، تتواشج، وتتآزر لتنتج تركيباً صلباً، محوره البؤرة الرئيسة، الرسول (ص)؛ إذ إنّ كل عناصر التركيب الجزئية تتوالد وتتعانق وتتفاعل معطيها الدلالية والجمالية، لتعبّر عن رؤية الشاعر الخاصة، وفلسفته، وهنا لجأ الشاعر إلى تقنية الحقل الدلالي، إذ إنّ المفردات (هداك، أعطاك، نافلة القرآن، مواعيط) جميعها تندرج تحت "الرشد والهدي والعطاء" والدافع إليها ثنائية ضديّة قوامها التنازع بين ما نُسب إليه بوساطة الوشاة من أهام بدينه من ناحية، وما هو عليه من الإيمان بالإله الواحد من ناحية ثانية. في هذا المقام يمكن أن نقول: إنّ لدى كعب بن زهير طاقة هائلة على خلق نصّ متين متواشج، ومنه التأدّب في مخاطبة ذوي الشأن: قول العبد للمولى إذا حوّل عنه وجهه: ينظرُ إليّ المولى ساعة، فعدل

المتكلم . هنا . في خطابه عن استعمال فعل الأمر "انظر" الإنشائي إلى استعمال الفعل المضارع الخبري "ينظر" تأديباً في مخاطبة مولاه، واحتراماً لمقامه.

٢- القول بوقوع التّقارض: (التقارض بين اللفظين في المعاني)

قد يجد النّحاة بعض الكلمات لا تتفق مع قواعدهم فيما ألفوا لهذه الكلمات أو الحروف من عمل، وقد يجدون أنّ كلمتين أو حرفين قد تبادلا العمل، فيقولون: وقع بينهما تشابه، لجهة المعنى، وقد أفرد ابن جني باباً أسماه "باب في تدرّج اللّغة" وذلك أن يشبه شيء شيئاً من موضع، فيُمضى حكمه على حكم الأول، ثم يُرْفَى منه إلى غيره.. ثمّ إنّه لمّا رأى "أو" في هذا الموضع قد جرت مجرى الواو تدرّج من ذلك إلى غيره، فأجرها مجرى الواو. (١)

وبعد ذلك سمّي بالتقارض، ونجد أولّ من وضع تعريفاً لهذا المصطلح، ابن يعيش، قال معلّقاً على قول الرّخشي "قوله: يتقارضان ما لكلّ واحد منهما؛ يعني أنّ كلّ واحد منهما يستعير من الآخر حكماً هو أخصّ به، فحكم "غير" الذي مختص به الوصفية أن يكون جارياً على ما قبله تحلية له بالمغايرة، فأصل "غير" أن يكون وصفاً، والاستثناء فيه عارض معار من "إلا". (٢)

ويقع التّقارض في الحروف والأفعال والأسماء، وقد ذكر ابن هشام هذه الظّاهرة في المغني، ومن ذلك قوله: "القاعدة الحادية عشرة: من ملح كلامهم تقارض اللفظين في الأحكام". (٣) وهذه الظّاهرة تعتمد على المعنى، وهي من مظاهر اتّساع اللّغة، وقد جاء في شعر كعب منها:

١- تقارض "أنّ" المصدرية و"ما" المصدرية "فتعطى" "أن" المصدرية حكم "ما" في الإهمال:

اختلف العلماء في إعطاء حكم "أن" المصدرية حكم "ما" المصدرية في الإهمال؛ فذهب قوم منهم الرّخشي وابن يعيش إلى أنّ "أن" هذه هي المصدرية التي تختصّ بالدخول على الفعل المضارع، والتي ينصب بها الفعل، ولكنها أهملت في شواهد لغوية حملاً على "ما" المصدرية أختها، لاشتراكهما في معنى المصدرية، وفي أن كل واحدة منهما تسبك مع ما بعدها بمصدر، وادّعى جماعة منهم ابن يعيش - أنّ إهمال "أن" المصدرية لغة لجماعة من العرب؛ وقد أقرّ ابن هشام بوقوع التّقارض في قول كعب:

أرْجُو وآملُ أنْ تَدْنُو مَوَدَّتْهَا وَمَا إِحْأَلْ لَدِينَا مِنْكَ تَنْوِيلٌ (٤)

١ ابن جني، الخصائص، ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨. ٢/ ٤٦٥.

٢ ابن يعيش، شرح المفصل، ٢/ ٨٨.

٣ ابن هشام، مغني اللبيب، ص ٩١٥.

وقوله: "أَنْ تَدْنُو، بالإسكان محتمل لوجهين: أحدهما: أن يكون أهمل "أَنْ"، المصدرية حملاً على "ما"، المصدرية، والثاني: أنه أجرى الفتحة على الواو مجرى الضمة للضرورة." (١)

عدل الشاعر عن الفتح إلى الإسكان؛ أي: من الخفيف إلى الأخرى؛ لأنَّ الموقف موقف رجاء وأمل وتمنٍّ، وضعف، وآثر ألاَّ يعمل "أَنْ" بالفعل المضارع "تدنو" والحكمة في عدم ظهور الفتحة الحرص على بقاء الفعل على صورته الأصلية، وبقاء الضمة مقدّرة على الواو، وكذلك يمكن القول: جواز التقارض بين "أَنْ" و"ما" لشبههما في التركيب، والمصدرية، فكل حرف يتركّب من: حرفين عبارة عن: (O/).

٢- التقارض بين (أو) والواو:

ذهب جمهور النحاة إلى أنّ المعنى الأصلي الموضوع له " أو العاطفة الدلالة على أحد الشئيين أو الأشياء؛ لأنَّ مبناها على عدم الاشتراك، بيد أنه قد يتفرغ عن هذه الدلالة الأصلية معانٍ آخر تستفاد من القرائن السياقية المختلفة، كالتخيير، والإباحة في الطلب، والشك، والإيهام، والتقسيم أو التنويع، أو غيرهما، في الخبر. (٢)

فتصير "أو" فيهما نائبة عن غيرها ومؤدّية معنى هو في الأصل يؤدّي بغيرها من حروف العطف: معنى الواو في مطلق الجمع؛ وذلك بحسب نصّ كثير من النحاة. وعدّ ابن يعيش استعمال "أو" بمعنى الواو الدالة على الجمع شاذّاً. (٣) وعليه أكّد ابن هشام أنّ "أو" تأتي بمعنى الواو في قوله:

أكرم بها خُلة لو أنّها صدقت موعودها أو لو أنّ النصح مقبول

فقوله: "أو لو أنّ النصح مقبول" إنّ هناك من يرى أنّ "أو" تأتي بمعنى الواو، ويدّعي أنّ ليس مراده أن يقع أحد الأمرين، بل أن يقعاً جميعاً، وهذا قول أبي الحسن والجزمي وجماعة من الكوفيّين، وجعلوا منه قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (٤)، ولعلّ الاستدلال ببيت كعب أظهر، لأنّ "أو" في الآية محتملة للإيهام وللشك مصروفاً إلى المخاطبين. (٥) أي: إنّ هذه المرأة قد خلطت بدمها الإفجاع بالملكروه، والكذب في الخبر، والإخلاف في الوعد، وتبديل خليل بآخر وصار ذلك سحياً لها لا طمع في زواله عنها. فعندما جمعت سعاد هذه الصفات في آنٍ معاً، كانت "أو" بمعنى الواو. فتلك مواضع تشي

١ ابن هشام، شرح قصيدة كعب بن زهير، ص ١٥٢، ١٥٦.

٢ ابن يعيش، شرح المفصل، ٩١/٨ - ٩٢، ابن هشام، مغني اللبيب، ص ٨٨ - ٨٩.

٣ ابن يعيش، شرح المفصل، ٩١/٨ - ٩٢.

٤ الصافات، الآية، ١٤٧.

بشيء من التلازم والاقتران والمصاحبة بين المتعاطفين، أو هي من قبيل عطف المرادف والمؤكّد. فنحن أمام تركيبين متلازمين ربطت "أو" بينهما، وهذان التركيبان ينمّان على عدم الصدق بالوعد، وعدم قبول النصح، وكلاهما يشي بالتمرد، وعدم الاستجابة. إنّ قوة الارتباط بين الوحدات التركيبية هنا تُحيل ذلك التّمط إلى ما يُطلقُ عليه: النيابة، وهو لا يكاد يحدث إلا إذا التصقت مفرداته التصاقاً مغطياً غير معهود للسلوك اللغوي المتعارف عليه، حتى إنّه يتقارب مع الدلالة الكلية للمفردة، فيكون ارتباطه وتماسكه على أساس اللفظ والمعنى معاً بمنزلة الكلمة الواحدة، أو أنّ كل وحدة تركيبية تفقد دلالتها الخاصّة، وتكاد تنعدم دلالتها بذاتها، وتلتحم مع بقية أجزاء الجملة لتسهم في تشكيل الدلالة الكلية.

٤- تقارض حروف الجر: (القول بالنيابة):

إنّ ما يتمتع به نظام العربية من مرونة، وقدرة على توليد الجمل والتراكيب، والتعبير بعبارة أو كلمة عن أكثر من معنى، وفرز أكثر من دلالة يدحض الخلاف النحوي السطحي؛ هو الذي فرضه النحاة الحرفيون بسطوتهم، وبفكرهم الذي سيطرت عليه التعقيدات والتأويلات، لفرض قواعدهم، وتثبيت مذاهبهم.

ولا نريد أن نقول: إنّ ذلك خاصّ بالشعر، لضرورة الوزن والقافية، فقد وقع في القرآن الكريم وغيره من الكلام الفصيح، ويمكن إعطاء ظاهرة العدول عن استعمال الحرف أكثر من تفسير على الرغم من اختلاف النحاة في تفسيرها بين التناوب والتّضمن، وكلتا الظاهرتين باب واسع في العربية تشمل ظواهر لغوية متعدّدة، وتدلان على نظام العربية القائم على الترابط وتعالق الكلم بعضه مع بعض، وبعضه خفيّ يشترط فيه إعمال الفكر والتأمّل الدقيق والفهم العميق، لكي يستخرج القارئ أسراراً بيانية ومعاني ثانية دقيقة.

فحروف الجرّ أدوات ربط، تستخدم لربط أجزاء الكلام حتّى تتضح تفاصيل المعنى، لذلك لها قيمة دلالية سياقية نصيّة، تظهر من خلال توظيفها في النصوص، فهي تحدد الدلالات السياقية بدقة وتبيّن معناها ومغزاها في التركيب، وحروف الجرّ وظيفتان: دلالية ونحوية، وإحداث الترابط والتماسك بين عناصر الجملة، فلا يمكن الاستغناء عنها.

وقد بلغت شواهد هذه الظاهرة من الكثرة إلى الحدّ الذي قال معه ابن هشام الأنصاري: "ولو ذكرث أحرف الجرّ ودخول بعضها على بعض في معناه، لجاء من ذلك أمثلة كثيرة." (١)

وقد حاول ابن جني أن يتوسّط بين المذهبين، فقال: "ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا - أي: الكوفيون وقال ابن هشام عنهم: ومذهبهم أقلّ تعسفاً. (١) - لكننا نقول: إنّه يكون بمعناه في موضع دون موضع، على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوّغة له، فأما في كلّ موضع وعلى كلّ حال، فإنّ العرب قد تتسع، فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيداناً بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيء معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه." (٢)

وهذه ظاهرة عامة في العربية، تتعلّق بإبداع اللغة، وهي أيضاً من الوظائف التحوّية الناشئة عن اتّساع في استخدام الوحدات اللغوية لتؤدّي المعاني المختلفة، سواء أكانت في البلاغة أم في النحو أم في اللغة.

١ - العدول عن "في" إلى "الباء":

ذكر ابن هشام أنّ الباء تقع موقع "في" في قول كعب:

أُمتتُ سعاداً بأرضٍ لا يبلّغها
 إلّا العتاقُ النجياتُ المراسيلُ

قوله: "بأرض" الباء ظرفية، مثلها في: (٣) ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِيِّ﴾. (٤)

كان على الشاعر كعب أن يستعمل "في" مكان "الباء" لأنّها أصل في المكان، فهل هناك من سرّ وجمال للعدول عن استعمال "في" أم أنّ الشاعر جنح إلى هذا العدول كيلا ينكسر الوزن؟ يؤكّد الشاعر بعد سعاد عنه بعداً مكانيّاً ونفسياً، فقد أمتت وصارت في أرضٍ بعيدة لا تصل إليها إلّا التوقّ التّجائب القويّة السريعة، التي ستصاب بالإعياء والتعب لطول الطريق ومشقة السفر، وقد خصّ الشاعر ثنائياً: الزّمان "المساء" والمكان "بأرض" لما يرتبط به من وقت الرحيل وتراكم الأحزان؛ فالليل يجمع الأحزان، و"بأرض" المكان البعيد مجاز مرسل عن مسكن سعاد الجديد، والمبالغة في بعد المكان، ففكرة الخوف التي انتابت الشاعر نتيجة وصوله وناقته إلى مكان لا مألوف جعلت الذات الشاعرة واقعة تحت صدمة واقع انفعالي مدهش غريب ومخيف، ولذلك، فحسّ الضياع والخوف يبقى ملازماً وملاصقاً لها، مادامت ملازمة لهذا المكان الذي يُجهل معالمة، فمعاناة الشاعر للمكان، هي معاناة حدسية فوق شعورية، وسرّ جمال هذه الثنائية: الدقة والإيجاز في الوصف، وما تعالق الباء للنكرة "أرض" إلّا لإظهار مدى

١ المصدر نفسه، ١٥٠ - ١٥١.

٢ ابن جني، الخصائص، ٢ / ٣٠٨.

٣ القصص: ٤٤.

كراهيته لهذا المكان البعيد الذي حلّت به سعاد، وذهب بعض النحاة إلى أنّ الباء الظرفية لاتدخل إلاّ على المعرفة، قال المبرد: "تقول: فلان في الموضوع، وبالموضع، فیدخل الباء على" في" (١) فوصول سعاد إلى مكان بعيد يستوجب بالضرورة التصاقها بالمكان، وجعلها جزءاً لا يتجزأ منه، وهذه الدلالة تناسب استعمال حرف الجر الباء، وليس "في" لعدم تحقيق الدلالة المرجوة من الحرف "في"، ولو قال: أمست سعاد في أرض، لجاء الكلام على أصلته في استعمال حرف الجرّ، فلا فصاحة، وعليه؛ عدل الشاعر عن استعمال "في" إلى استعمال "الباء". وقد نقرأ في استعمال الباء المقطع القصير (/) بدلاً من "في" ذات المقطع الطويل (O /) نوعاً من الحركة التي تتوازي مع حركة على المستوى الوجداني النفسي للشاعر، تشدّ كعباً نحو السفر السريع الذي يوصله إلى مكان سعاد؛ ذلك المكان المثالي الذي يحتاج إلى ناقة تتفوق على مواصفات النوق الاعتيادية جميعها، ولعلّ تفوقها ناجم عن تعالّقها السامي برسول الله محمد (ص).

٢- العدول عن "مع" إلى "على":

ذهب ابن هشام إلى أنّ "على" تنوب مناب "مع" في قوله:

ولن يُبْلِغُهَا إِلَّا عُدَاْفِرَةً فِيهَا عَلَى الْأَبْنِ إِرْقَالٌ، وَتَبْغِيلٌ

ف "على" بمعنى "مع" مثلها في قوله تعالى: (٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾، (٣)

فاختيار الشاعر حرف الجر "على" واستبعاده للحرف "مع" ينمّ على عمق في إدراك المعنى، وما يفرزه من دلالة لا يستطيع الحرف "مع" القيام بها، وكان بإمكانه أن يقول: "فيها مع الأبن إرقال وتبغيل" فلا ينكسر الوزن.

وأصل التركيب: فيها إرقالٌ وتبغيلٌ على الأبن، والإرقال والتبغيل: نوع من السير السريع، والأبن: التعب والإعياء، وْعُدَاْفِرَةٌ: الناقة الصلبة، ووظيفة حرف الجر على الروائتين "على، مع" الربط بين الصفتين، ولما أراد الشاعر الفخر بناقته وقوتها وصلابتها وسرعتها في العدو على هيئة طير، وتغلبها على الإعياء والتعب عدل عن استعمال "مع" إلى استعمال "على" لضعف المعنى مع "مع" لأنّ أصل استعمال "على" للاستعلاء، و"مع" للمصاحبة، وهو غير مُراد، بأن يصاحب سرعة الناقة وقوتها التعب.

١ المبرد، المقتضب، ٢ / ٣٣١.

٢ الرعد: ٦.

ويمكننا القول: إنَّ كلَّ كلمة يمكن لها أن تكون أساسية في سياق ما، وأنَّ الوقوف على الكلمات الأساسية في نصِّ شعريٍّ معيَّن يتطلَّب من القارئ أو الناقد قدرًا من الفطنة والدقَّة في النَّظر، ومن شأنه عند ذلك أن يسمح له باستكشاف كثيرٍ من غوامض ذلك النَّصِّ.

٣ - العدول عن " على " إلى " عن " : وذلك في قول كعب:

ضَخْمٌ مُقْلَدُهَا عَيْلٌ مُقْيِدُهَا فِي خَلْقِهَا عَنِ بَنَاتِ الْفَحْلِ تَفْضِيلٌ

قوله: "في خلقها عن بنات" "عن" بمعنى "على" وهي متعلقة بـ " تفضيل " وإن كان مصدرًا؛ لأنَّه ليس منحلاً لأنَّ والفعل^(١). وصف الشاعر ناقته بأنَّها ضخمة الرقبة والأطراف، كاملة الخلق ممَّا يزيدُها قدرة على السَّير، وفي خلقها صفات متميزة عن النوق من بنات جنسها.

ومن المعروف أنَّ دلالة "عن" المجاوزة والمراد بها الابتعاد، أمَّا حرف الجر "على" فيفيد الاستعلاء، فاستعمال "عن" هنا لإفادة معنى البعد والمجاوز في المقارنة فيما اتصفت به هذه الناقة من القوة على بنات الفحل. وآثر عدم استعمال حرف الجر "على" إشارة إلى تصغير حالة شأن بنات الفحل لما هم فيه من التكبر والتعجرف، فترى نفسها فوق الجميع، فجاء الشاعر هنا بحرف الجر "عن" واستبعد استعمال "على" ليكشف لنا قوة هذه الناقة، وتغلبها على غيرها، وهذا من المجاز. ففائدة تعليق حرف الجر والنيابة التكنيف الدلالي على مستوى البنية السطحية على حساب البنية العميقة؛ إذ بؤرة المركز هو السطح لا العمق، حرف الجرّ "عن" لا الحرف "على" فاحتزل ما يكتي عنه، حيث يؤدي إلى اتساق النَّصِّ وتماسكه، فلا يتضح معنى التركيب إلَّا من خلال تحديد وظيفة الكلمة داخل السَّيْاق النَّصِّي، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها، والحصافة في سرر أغوار المعنى، فأبىّ تغيَّر في شكل التركيب يتبعه تغيَّر في المعنى طبيعياً اعتيادية، وقد يكون المد الصَّوْتِي المتولَّد عن حرف الجرّ (عَنْ / O) مدعاة إلى استغراق الشَّاعر في تأمُّل رسم صورة تلك النَّاقَة التي لاتشبهها ناقة.

٤- العدول عن "على" إلى "في" :

إنَّ لغة الشعر الحقيقي هي لغة الإبداع، والعدول عن استعمال حرف إلى حرف آخر تحركه المعاني النَّصَّية الموحية، ففي قول كعب:

تُمِرُّ مِثْلَ عَسِيبِ النَّخْلِ ذَا خُصْلِ فِي غَارِزٍ لَمْ تُخَوِّنْهُ الْأَحَالِيلُ

قال ابن هشام: "في" بمعنى "على" مثلها في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾^(١).

١ المصدر نفسه، ص ١٩١.

أي: أهما تُمَرُّ ذيلها الذي يشبه عسيب النحل ملتف الشعر على ضرعها الذي لم يجلب بعد، لأنها حائل لم تُحلب، وذلك أقوى لها على السير. فنفي الضعف عنها بنفيه عن ضرعها، وهنا دلالة على القوة، جاء في اللسان: "المرة: القوة، يقال: وأصل المرة إحكام الفتل، يقال: أمَرَّ الحبل إمراراً." (٢)

ف "في" تفيد الظرفية المكانية، للوعاء، وهي حقيقية تجر الاسم الذي يدل على ذات، ومجازية تجر الاسم الدال على معنى. جاء في الكتاب "وأما "في" فهي للوعاء، تقول: هو في الجراب وفي الكيس، وهو في بطن أمه، وكذلك: هو في العُل؛ لأنه جعله إذ أدخله فيه كالوعاء له، وكذلك: هو في القبة، وفي الدار، وإن اتسعت في الكلام، فهي على هذا." (٣)، فعدول الشاعر عن حرف الجر "على" إلى الحرف "في" ليدل على أن هذا الضرع الذي لم يجلب بعد ثابت متمكن في بطن ناقته الضامر، وذلك أقوى لها على المسير، وأكثر التصاقاً بها، على الرغم من أن الضرع لا يكون داخل جسد الناقة بل على سطح جسدها، ف (في) و (على) كلاهما يقتضي التمكّن والثبات. وقد يشي استخدام (في) بدلاً من (على) بالقوة التي تولدها حركة الدليل في أثناء ضربها للضرع القوي الذي لم يجلب بعد؛ فالناقة بكر، قوية، سريعة، لاتعرف العجز في جوهرها، وعلى هذا نجد أن اللغة التي تنضح بالشعرية تنفك بناها التركيبية من ريقة المعنى الحدّي الموجه للدلالة حرف الجر المستخدم، وهنا يبدو الدال عائماً والمدلول منزلقاً على نحو دينامي مؤثّر.

خاتمة:

نخلص ممّا تقدّم إلى أنّ الشعر إبداع، ولدراسته لابدّ من إعمال الفكر للكشف عن أغوار النصّ الشعريّ، وسرّ جماله، وهذا يعود إلى شعرية اللغة المنحزة، والبراعة في حسن استعمالها، فلجوء الشاعر أو المبدع إلى العدول، وتوظيفه في تراكيبه على نحو فاعل، ليس إلّا وجهاً من وجوه حيوية اللغة، وليس شيء يضطرّ إليه الشاعر في شعره إلّا وسيلةً من وسائل فنية اللغة، وإثرائها؛ وعليه يكون لكلّ مستوى من مستويات اللغة: نحوية، وصرفية، ودلالية، وإيقاعية، وظيفية شعرية تعزّز جمالية النصّ الشعريّ. سواء أكان متوافقاً مع القواعد المعيارية أم خارقاً لها. فالقلب اللغويّ، مثلاً، ذو السمات الشعرية، خارج عن المألوف، يثير ذهن المتلقّي، ويشغله، فيجعله يبحث عن المعنى خارج إطار الكلاسيكية المعهودة، ليغوص في أُرّ التراكيب، فينتزع غلقها.

١ ابن هشام، شرح قصيدة كعب بن زهير، ٢٠٩.

٢ ابن منظور، لسان العرب، "مرر".

والانزياح في تقارض الحروف معين تثر للعربية يجعلها لغة خصبة، قادرة على إفراز ظواهر يكمن فيها سحر وروعة وبيان، تنقلك من الظاهر إلى الباطن، إلى أغوار معنى، لم يخطر ببالك إلا إذا نفذت ببصيرتك، وعمق تفكيرك إلى لغة خلّفت وراءها غنى دلاليًا، كلّما تأملت فيه تجدد السحر والبيان. وما خلاصات النّحاة في تحريج الشّواهد الشّاذّة إلا اتّساع الخرق على الراقع، لقد قوقعوا اللغة حين حاولوا قسرها على معياريّتهم الساكنة الصّامتة، وقطعوا أزرها، فجاءت تعليقاتهم وتأويلاتهم مقولبة ضعيفة الاستنطاق أوهم من بيت العنكبوت، فلم يدركوا أنّ للغة جرسها، وسحرها، رونقها وأنقها، ولولم يلجأ الشاعر إلى هكذا تراكيب لجرى شعره على المألوف والعادة، فيذهب الرونق والطلاوة، ويموت الإبداع.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. ابن الأثير، ضياء الدّين، المثل السائر في أدب الكاتب والشّاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، القاهرة: مطبعة مصطفى البابي، ١٩٥٩م.
٢. ابن جيّ، التنبيه على شرح مشكلات الحماسة، تحقيق حسن محمود هندواوي، ط١، الكويت، ٢٠٠٩م.
٣. —، الخصائص، حققه محمد علي النّجار، ط٢، بيروت: دار الهدى للطباعة والنشر، د.ت.
٤. ابن فارس، أحمد، الصّاحبيّ في فقه اللّغة، وسرّ العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، علّق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسج، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
٥. ابن منظور، لسان العرب، نسقه وعلّق عليه ووضع فهارسه: علي شيري، الطبعة الثانية، بيروت: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٢م.
٦. ابن هشام، شرح قصيدة كعب بن زهير، ضبط وتحقيق ومراجعة محمود حسن أبو ناجي، ط٣، مؤسسة علوم.
٧. ابن هشام، شرح قطر النّدى وبلّ الصّدى، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، الطبعة الحادية عشرة، بيروت: دار إحياء التّراث العربي، ١٩٦٣م.
٨. ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، حققه وعلّق عليه: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، راجعه سعيد الأفغاني، الطبعة الثالثة، ١٩٧٢م.
٩. ابن يعيش، شرح المفصّل، بيروت: عالم الكتب، القاهرة: مكتبة المتنبّي.
١٠. أبو الفرج، قدامة بن جعفر، نقد الشعر، محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية.
١١. الأنباري، أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٦١م.
١٢. البغدادي، عبد القادر بن عمر، حاشية على شرح بانة سعاد لابن هشام، تحقيق: نظيف محمّد خواجه، راجعه ودققه وأعدّ فهارسه: محمد الحجري، تيسق وفهرسة: مصطفى قريميد، الطبعة الأولى، شتوتغارت: دار النشر فرانز شتانن فيسبادن، ١٩٩٠م.

١٣. الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تعليق وتصحيح: محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية، حمص: مطابع الروضة النموذجية، ١٩٨٩م.
١٤. الخليل، عبد القادر مرعي، أساليب الجملة الإفصاحية في النحو العربي، دراسة تطبيقية في ديوان الشابي، عمان: مؤسسة رام للتكنولوجيا والكمبيوتر، ١٩٩٥م.
١٥. الرضوي، شرح الرضوي على الكافية، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، ليبيا: جامعة قار بونس، كلية اللغة العربية، والدراسات الإسلامية، ١٩٧٨م.
١٦. الرمالي، ممدوح عبد الرحمن، العربية والوظائف التحوية، دراسة في اتساع النظام والأساليب، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٦م.
١٧. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ط١، قدّم له وعلّق عليه: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م.
١٨. الزحششري، جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، الطبعة الأولى، حققه وقدّم له ووضع فهرسه: مزيد نعيم وشوقي المعري، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، ١٩٩٨م.
١٩. السامرائي، فاضل صالح، معاني الأبنية في العربية، ط١، الكويت: جامعة الكويت، ١٩٨١م.
٢٠. عبد اللطيف، محمد حاسة، العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث، الطبعة الأولى، الكويت: مطبوعات جامعة الكويت، ١٩٨٤م.
٢١. عواد، محمد حسن، تناوب حروف الجرّ في لغة القرآن، ط١، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م.
٢٢. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن الكريم، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت: دار الكتاب العربي، ٢٠٠٨م.
٢٣. القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق وتعليق: لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر، القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد.
٢٤. كعب بن زهير، اللّديوان، الطبعة الثانية، تحقيق علي فاعور، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩م.
٢٥. المبرد، أبو العباس، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.
٢٦. النحاس، مصطفى، نحو النص في ضوء التحليل اللساني للخطاب، الطبعة الأولى، الكويت: منشورات ذات السلاسل، ٢٠٠١م.
٢٧. ويس، أحمد محمد، الانزياح في التراث النقدي والبلاغي، دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٢م.
٢٨. ويس، أحمد محمد، الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م.
٢٩. ياكسون، رومان، قضايا الشعريّة، ترجمة محمد الولي ومبارك حنون، الدار البيضاء: دار توبقال، ١٩٨٨م.
- الرسائل الجامعية:**
١. عبد السلام، محمد إبراهيم، ظاهرة العدول في اللغة العربية، رسالة ماجستير، إشراف د. عبد الرحمن إسماعيل، المملكة السعودية، جامعة أم القرى، ١٩٨٩م.

چکیده‌های فارسی

هنجارگریزی معنایی در شرح ابن هشام بر قصیده «بانث سعاد»

غیاث بابو*

چکیده:

این پژوهش بر آن است که خوانش متنی دستوری جدیدی از قصیده «البرده» انجام دهد. این مطالعه بر تکنیک آشنائی‌زدائی که کعب بن زهیر آن را در شعر خود به کار برده است، تأکید می‌کند؛ تکنیکی که غنای هنری و معنایی تولید می‌کند. این مسأله به وسیلهٔ زبان شعری قوی و مثبت که توان تعبیر بالایی دارد، تحقق یافته است. و در الگوهای مختلفی از آشنائی‌زدائی از جمله نحوی و صرفی صورت گرفته است. ابن هشام انصاری در شرح خود بر قصیده «بانث سعاد» نیز همین الگوها را مورد استفاده قرار داده و لایه‌های پنهان آن را آشکار نموده است. بررسی مذکور نشان دهندهٔ توانایی ابن هشام در زمینهٔ معنی است، و چندگانگی معنی به خوانش‌های گوناگونی از یک بیت شعر بر می‌گردد. در این مقاله تلاش پژوهشگر بر آن است تا بررسی وجوه نحوی مختلف از قبیل: النقل، القلب، التناوب و غیره را بازآفرینی کند، و میان آن و معنی بر مبنای رابطهٔ نحوی و معنایی پیوندی ایجاد نماید. این [عدول] از قالب اصلی در بافت، دارای جنبه‌های بلاغی و هدف‌های بیانی است و شاعر از آن سود می‌جوید تا گونه‌ای از گونه‌های بیان دلالت را آشکار کند و خواننده را شگفت زده نماید. این نوع هنجارگریزی نوعی فرار از هنجارهای معروف در سنت زبانی است، و به شکافتن نظام دستوری می‌انجامد و مسیر زبان را از جمود و رکود به پیشرفت سوق می‌دهد و منشأ ابداع و نوآفرینی می‌شود، و به موضعی که در آن دلالت معنایی که در تقویت معنی ناشی از فراگیر شدن وجه معنایی مؤثر است، اشاره می‌کند.

کلیدواژه‌ها: تبیین معنی، هنجارگریزی، ابن هشام، بانث سعاد.

* - استادیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه فرات، حسکه، سوریه.

Abstracts in English

Defamiliarization in Ibn Hisham's Interpretation of The Poem, Banat Souad by Kaeb bin Zuhair

Ghayath Babo, Arabic Language and Literature Instructor, Farat University, Syria.

Abstract

This study provides a new textual interpretation of the poem, *Banat Souad* by Kaeb bin Zuhair. This study emphasizes defamiliarization, which Kaeb has employed in his poem, technique which produces artistic and ideational richness. This defamiliarization has taken place at both morphological and syntactic levels. In his commentary on the poem, Ibn Hisham Ansari, used the same patterns and revealed its hidden meanings. The present study shows Ibn Hisham's ability in semantics and points out his multiple interpretations of the same lines of poetry. In this article, we have tried to show the relation between syntax and semantics. Deviation from the textual mainstream is for rhetorical and expressive purposes and the poet employs it show one surprising way of expression. This deviation from the linguistic norms enlivens the language, helps its development and progress, and brings about creative constructions.

Keywords: Meaning clarification, Defamiliarization, Ibn Hisham, *Banat Souad*.